جوانب من الفكر الإصلاحي الإسلامي
التحذير من السحر والتنجيم والكهانة والعرافة

الدكتور محمد الزغول
قسم أصول الدين -كلية الشريعة
جامعة مؤتة - الأردن

الملخص

تلقي هذه الدراسة الضوء على جانب هام من جوانب الفكر الإصلاحي الإسلامي، فقد بينت موقف الإسلام من السحرة ، والمشعوذين ، والكهان ، والمنجمين،الذين شكلوا على مر العصور خطراً كبيراً على عقيدة المسلمين النقية ، وكان لأعمالهم آثار سلبية في علاقات الناس الاجتماعية.

مقدمة

إنّ من طبيعة البشر التشوّق إلى استشراف الغيب ومعرفة المجهول، والرغبة في معرفة عواقب الأمور، وما عساه يحصل لهم من صحة وسقم، وغنى وفقر، مما دفع طائفة من الناس قديماً وحديثاً إلى ادّعاء معرفة الغيب، والقدرة على جلب الخير ودفع الشر، فانتشر السحرة والمشعوذون، وكثر أدعياء الغيب من الكهان والعرافين والمنجمين، الذين ادّعوا معرفة الأحداث بالاتصال بالجان أو من خلال النظر في الأبراج، أو غير ذلك من الأباطيل والحيل الشيطانية. وكلها منزلقات خطيرة، لم تجن البشرية من ورائها إلاّ ثماراً مرّة خبيثة.

حارب الإسلام كل هذه الأوهام، وهاتيك الأباطيل، وكشف زيف أصحابها، وحمل على الكهان ومن إليهم من العرافين والمنجمين، وكلّ من ادعى أنه يمتد بسبب إلى السماء، ويملك معرفة الغيب، فحرر العقل البشري من الوهم والخرافة، ودعا إلى التفكير والتدبّر، والدليل والبرهان، ليكون الإنسان على هدى وبصيرة.

ومع أنّ الإنسان بلغ في هذا العصر درجة لم يبلغها من قبل في البحث والكشف العلمي، إلاّ أنه ما زال يتخبّط في جانب الإدراك والتصوّر، لأنه لم يسلك الطريق القويم في سبر غور العقيدة، وفهم حقيقة الدين.

ولما كان من اهتمامات الإسلام الإصلاحية، تنقية الدين مما ألحق به الأدعياء، والعوام، والخرافيون من الأوهام والبدع والضلالات، فبيّن بصراحة وجرأة، انحراف هؤلاء المضللين، الذين حجبوا نور الحق عن الناس. جاءت هذه الدراسة لتلقي الضوء على هذا الجانب الهام.

ويرجع السبب في اختياري لهذه الدراسة إلى أمرين:

أولاً: إقبال الناس الكبير في كل عصر من العصور على السحرة والمنجّمين وأضرابهم، وازدحامهم عليهم، ولا ولاسيّما النساء، وما يتبع ذلك من فساد وإفساد.

ثانياً: عدم فهم الكثيرين حقيقة موقف الإسلام من قضايا السحر والشعوذة، وانخداعهم بالمظاهر والمسميات.

ولتكون الدراسة وافية، رأيت من الواجب عليّ أن أرجع إلى مصنّفات مختلفة في الفقه والتاريخ والتفسير والحديث وغيرها، لعلّ القارئ الكريم يجد فيها شيئاً جديداً ونافعاً.

وجاءت هذه الدراسة موزعة على النقاط الآتية:

- علم الغيب.
- معنى السحر والألفاظ ذات الصلة.
- أنواع السحر.
- الاعتقاد بالتنجيم والسحر.
- تفسير آيات السحر من سورة البقرة ودلالاتها.
- عدم فلاح الساحر.
- أكل أموال الناس بالباطل.
- الأنبياء ليسوا سحرة.
- هل للسحر حقيقة وتأثير في الواقع؟
- حكم الذهاب إلى السحرة والكهان.
- حكم التداوي بالرقى، واستخدام الجن من قبل الإنس.

بالإضافة إلى خاتمة بيّنت فيها أهم النتائج التي توصّلت إليها الدراسة.

علم الغيب:

يدلّ الاستقراء التاريخي على أنّ الإنسان شعر منذ أقدم الأزمنة برغبة شديدة في معرفة ما سيحدث في المستقبل، لذا نجد أنّ الكهانة قد أدّت دوراً هاماً في حياة الأمم القديمة ولا ولاسيّما اليونان، حتى إنّ بعض المؤرّخين ادعوا بأنّ كل تاريخ اليونان بمنزلة فصل كبير من فصول تاريخ الكهانات العام(١).وقد تحدّث ابن خلدون في مقدّمته الشهيرة عن ولع الإنسان بمعرفة الغيب وأسبابه، فقال: "اعلم أنّ من خواص النفوس البشرية، التشوّق إلى عواقب أمورهم، وعلم ما يحدث لهم، من حياة وموت، وخير وشر، ولاسيّما الحوادث العامة، كمعرفة ما بقي من الدنيا، ومعرفة مدد الدول أو تفاوتها، والتطلع إلى هذا طبيعة مجبولون عليها، ولذلك تجد الكثير من الناس، يتشوّقون إلى الوقوف على ذلك في المنام، والأخبار من الكهان لمن قصدهم بمثل ذلك من الملوك والسوقة معروفة، ولقد نجد في المدن صنفاً من الناس ينتحلون المعاش من ذلك، لعلمهم بحرص الناس عليه"[٢]. يقسم الغيب إلى قسمين:

١-غيب حقيقي مطلق: وهو ما غاب علمه عن جميع الخلق، حتى الملائكة، وفيه يقول الله عزّ وجلّ: ((قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلاّ الله)). (النمل/٦٥). وهذا النوع عجز الإنسان منذ بدء الخليقة عنه، فلم ينفذ إليه علمه، ولا يعرف مما وراء الستر المسدل، إلاّ بقدر ما يكشف له منه علام الغيوب، وليس الإنسان وحده هو المحجوب عن علم الغيب، ولكن كل من في السموات والأرض من خلق الله، من ملائكة وجنّ وغيرهم. يقول سيد قطب في الآية السابقة: "وهو نص قاطع لا تبقى بعده دعوى لمدّع، ولا يبقى معه مجال للوهم والخرافة"[٣].

٢-غيب إضافي: وهو ما غاب علمه عن بعض المخلوقات دون بعضهم، فما تعلمه الملائكة من أمر عالمهم، لا يعلمه البشر. ولا يدخل في عموم معنى الغيب الوارد في كتاب الله، وما يعلمه بعض البشر بتمكينهم من أسبابه واستعمالهم لها، لا يعلمه غيرهم لجهلهم بتلك الأسباب، أو عجزهم عن استعمالها، كالدقائق العقلية والعلمية، فإنّ بعض العلماء يستخرجون من دقائق المجهولات، ما يعجز عنه أكثر الناس، ويضبطون ما يقع من الخسوف والكسوف بالدقائق والثواني قبل وقوعهما بأعوام.

ونرى ابن تيمية هنا يفرّق بين ما يُتوصّل إليه بالعلم، وبين من عنده علم هذا فيخدع الناس ويدّعي معرفة الغيب، وكأنّه يشير إلى مسألة هامة، وهي أنّ بعض ما يظهره هؤلاء، إنّما هو في حقيقته علم شيء عرفوه ولم يعرفه غيرهم، فيقول: "إنّ العلم بوقت كسوف الشمس وخسوف القمر، لا يتعارض مع الآثار الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلّم في الخسوف والكسوف، وأنه من ادعى خلاف ذلك من المتفقهة أو العامة، فلعدم علمه بالحساب". ويقول: "ولهذا يمكن في معرفتهما مضى من الكسوف، وما يستقبل، كما يمكن في معرفتهما مضى من الأهلة وما يستقبل، إذ كل ذلك بحساب"، كما قال تعالى: ((وجعل الليل سكناً، والشمس والقمر حسباناً)). (الأنعام/٩٦). وقال تعالى: ((والشمس والقمر بحسبان)). (الرحمن/٥). وقال تعالى: ((هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً، وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب)). (يونس/٥). وقال: ((ويسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج)). (البقرة/١٨٩).

وأشار إلى بعض طرق أدعياء الغيب آنذاك في اصطياد الجهلة من الناس، ذلك أنهم إذا رأوا المنجّم قد أصاب في خبره عن الكسوف المستقبل، يظن أنّ خبره عن الحوادث من هذا النوع، وما دروا أنّ خبره هذا بمنزلة إخباره أنّ الهلال يطلع: إما ليلة الثلاثين، وإما ليلة إحدى وثلاثين،

فإنّ هذا أمر أجرى الله به العادة، لا يخرم أبداً، وبمنزلة خبره أنّ الشمس تغرب آخر النهار، وأمثال ذلك[٤].

ونرى اليوم من وسائل الاتصال المتطوّرة، ما يمكّنا من معرفة ما يحصل في أقاصي البلاد، وقت حصوله، لحظة بلحظة.

وقد تحصل في معرفة لبعض الناس، وفي حالات نادرة بغير هذه الطرق، يقول صاحب المنار في الطرق التي يتوصّل بها إلى في معرفة: "ومنها ما قد يصل إلى حد العلم من الإدراكات النفسية الخفية، كالفراسة والإلهام، وأكثر هذا النوع من الانكشاف، لوائح تلوح للنفس لا تجزم بها إلاّ بعد وقوعها"[٥].

وجملة القول إنّ علم الغيب لله وحده، حتى أنّ نبيّنا عليه الصلاة والسلام نفى عن نفسه علم الغيب، قال تعالى: ((قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب)). (الأنعام/٥٠).

ومع ذلك وجدنا كثيراً من ضعفاء العقول، في كل عصر، يحاولون استكشاف عواقب أمرهم في الكسب والجاه والمعاش والمعاشرة والعداوة وأمثال ذلك – مما ذكره ابن خلدون عنهم- ما بين خط في الرمل ويسمّونه **المنجّم**، وطرْق الحصى والحبوب ويسمّونه **الحاسب**، ونظر في المرايا والمياه ويسمّونه **ضارب المندل**. ومما لا شك فيه أنّ هذا "من المنكرات الفاشية في الأمصار لما تقرّر في الشريعة من ذمّ ذلك، وإن البشر محجوبون عن الغيب، إلا من أطلعه الله عليه من عنده"[٦].

يتبيّن من قول ابن خلدون أنّ طرق التعرف على الغيب متنوعة، وبحسب تنوّعها تنوّعت مسميات أدعياء الغيب، وأشهرها: الساحر، والمنجّم، والكاهن، والعرّاف.

علماء كثر الذين تطرّقوا إلى هذا الموضوع منهم: ابن عابدين، وابن حجر الهيتمي، والبغوي.

يقول ابن عابدين: "الكاهن من يدّعي معرفة الغيب بأسباب، وهي مختلفة، فلذا انقسم إلى أنواع متعددة كالعرّاف، والرمّال، والمنجّم، وهو الذي يخبر عن المستقبل بطلوع النجم وغروبه، والذي يضرب بالحصا، والذي يدّعي أنّ له صاحباً من الجن يخبره عمّا سيكون"[٧].

وذكر ابن حجر الهيتمي هذه الطرق وغيرها، وبيّن أنّ جميعها لها الحكم نفسه، لأنّ الملحظ في الكل واحد. فالكاهن هو الذي يخبر عن بعض المضمرات، فيصيب بعضها، ويخطئ أكثرها، ويزعم أنّ الجن تخبره بذلك. أو تعاطي الإخبار عن المغيبات في مستقبل الزمان، وادعاء علم الغيب، وزعم أنّ الجنّ تخبره بذلك[٨].

ويقول البغوي في العرّاف: "هو الذي يدّعي معرفة الأمور، بمقدمات أسباب، يستدل بها على مواقعها، كالمسروق من الذي سرقه، ومعرفة مكان الضالة، ونحو ذلك"[٩].

ويرى ابن تيمية أنّ العرّاف: "اسم للكاهن، والمنجّم، والرمّال، ونحوهم، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق"[١٠]. وأضاف: "ولو قيل إنه في اللغة اسم لبعض هذه الأنواع، فسائرها يدخل فيه بطريق العموم المعنوي، كما قيل في اسم الخمر والميسر ونحوها"[١١].

وما ذهب إليه ابن تيمية صحيح؛ لأنّ مدارها جميعاً معرفة الحوادث والتنبؤ بالغيب. وعليه فكلامنا في السحر، يقصد به كل أشكاله وصوره، من الكهانة، والتنجيم، والعرافة وغيرها من الألفاظ الآتية.

معنى السحر والألفاظ ذات الصلة

قبل أن نعرّف السحر، نقف على معنى بعض الألفاظ ذات الصلة به، وهي:

١-الشعوذة: وهي خفّة في اليد، بحيث يُرى الشيء على غير ما عليه أصله في رأي العين، فهي كالسحر، وقالوا رجل مشعودٌ ومُشَعْوِدٌ، وقد يسمى الشعبذة[١٢].

٢-النشرة: وهي ضرب من الرُّقية والعلاج، يعالج به من يُظن أنّ به مسّاً من الجن. وسمّيت نشرة لأنه ينشر بها ما خامره من الداء، أي: يُكشف ويزال[١٣].

٣-العزيمة: وهي من الرقى التي كانوا يعزمون بها على الجنّ، وجمعها العزائم[١٤].

٤-الرقية: جمعها الرقى، وهي ألفاظ خاصة تستعمل للشفاء من المرض[١٥].

٥-الطلسم: جمعها الطلسمات، وهي أسماء خاصة زعموا أنّ لها تعلقاً بالكواكب، تُجعل في أجسام من المعادن أو غيرها، وقالوا: أنها تُحدث آثاراً خاصة[١٦].

٦-الأوفاق: وهي أعداد في أشكال هندسية على شكل مخصوص، يقال إنّ من عمله في ورق وحمله كان الحظ حليفه، فيؤدّي -مثلاً- إلى تيسير الولادة، أو نصر الجيش[١٧].

٧-التنجيم: وهو الاستدلال بالتشكّلات الفلكية على الحوادث الأرضية[١٨].

٨-السحر: ويطلق في اللغة على كل ما لطف مأخذه ودقّ، وخفي سببه. أو يتخيل على غيرحقيقته، ويجري مجرى التمويه والخداع[١٩].

وتقول العرب في الشيء الشديد الخفاء: أخف من السحر. وقالوا: عين ساحرة وعيون سواحر. وقال صلى الله عليه وسلم: (إنّ من البيان لسحراً) [٢٠]. فتأثير العيون الحِسان، والكلام البليغ عند عشّاق البيان، مما يخفى مسلكه، ويدقّ سببه، حتى يصعب الوقوف على العلّة في تأثيره[٢١].

وقالوا: سحره وسحّره، بمعنى خدعه وعلّله، ومنه سحرت الصبي: أي خادعته واستملته. ومن هنا عرّف ابن فارس السحر: بأنه إخراج الباطل في صورة الحقّ[٢٢].

والمعنى الاصطلاحي للسحر، شديد الصلة بالمعنى اللغوي، لدرجة أنّ بعض العلماء لم يفرّق بين المعنى اللغوي والاصطلاحي في تعريف السحر. فقد عرّفه الجصّاص بأنه: "اسم لكل أمر خفي سببه، وتُخيّل على غير حقيقته، وجرى مجرى التمويه والخداع"[٢٣]. ومثله تعريف الرازي، إذ يقول: "اعلم أنّ لفظ السحر في عُرف الشرع مختص بكل أمر يخفى سببه، ويتخيّل على غير حقيقته، ويجرى مجرى التمويه والخداع"[٢٤].

وقال الطبرسي: والسحر والكهانة والحيلة نظائر، يقال: سحره يسحره سحراً. وقال صاحب العين: "السحر عمل يقرّب إلى الشيطان، ومن السحر: الأُخْذة التي تأخذ العين، حتى يظن أنّ

الأمر كما ترى، وليس الأمر كما ترى، والجمع: الأخذ، فالسحر: عمل خفي لخفاء سببه، يُصوّر الشيء بخلاف صورته، ويقلبه عن جنسه في الظاهر، ولا يقلبه عن جنسه في الحقيقة[٢٥].

ويرى سيّد قطب أنّ السواحر: الساعيات بالأذى عن طريق خداع الحواس، وخداع الأعصاب، والإيحاء إلى النفوس والتأثير والمشاعر، يقول: "والسحر لا يُغيّر من طبيعة الأشياء، ولا يُنشئ حقيقة جديدةً لها، ولكنه يُخيّل للحواس والمشاعر بما يريده الساحر"[٢٦].

ويمكن ملاحظة نوع آخر من التعريفات في مقابل التعريفات السابقة، منها تعريف ابن خلدون الذي عقد فصلاً طويلاً في مقدمته تناول فيه علوم السحر والطلسمات، يقول: "وهي علوم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر، إما بغير معين، أو بمعين من الأمور السماوية، والأول: هو السحر: والثاني: هو الطلسمات"[٢٧].

هذا التعريف يثبت للسحر حقيقة، وهذا ما نجده عند الغزالي أيضاً، إذ عدّ علم السحر والطلسمات في العلوم المذمومة، وقال: وهو حق. وعرّفه بأنه: "نوع يُستفاد من العلم بخواص الجواهر، وبأمور حسابية في مطالع النجوم، فيُتخذ من تلك الجواهر هيكل على صورة للشخص المسحور، ويُرْصد به وقت مخصوص من المطالع، وتُقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع، ويتوصّل بسببها إلى الاستعانة بالشياطين، ويحصل من مجموع ذلك -بحكم إجراء الله تعالى العادة- أحوال غريبة في الشخص المسحور"[٢٨].

وقد ذكر الراغب الأصفهاني أنّ السحر يطلق على عدّة معانٍ، هي:

أولاً: الخداع والتخييل، نحو ما يفعله المشعبذ بصرف الأبصار عما يفعله لخفة يد، وما يفعله النمّام بقول مزخرف عائق للأسماع، يدلّ على ذلك قوله تعالى: ((سحروا أعين الناس واسترهبوهم)). وقوله: ((يخيل إليه من سحرهم)). ولهذا سموا موسى عليه السلام ساحراً، فقالوا: ((يا أيها الساحر ادع لنا ربك)).

ثانياً: استجلاب معاونة الشيطان بضرب من التقرّب إليه، وفي ذلك يقول تعالى: ((هل أنبّئكم على من تنزل الشياطين، تنزل على كل أفاك أثيم)). وقوله: ((ولكن الشياطين كفروا يُعلّمون الناس السحر)).

ثالثاً: ما يذهب إليه الأغتام، وهو اسم لفعل يزعمون أنّ من قوّته يُغيّر الصور والطبائع، فيجعل الإنسان حماراً، ولا حقيقة لذلك عند المحصلين.

ويضيف الأصفهاني: وقد تصوّر من السحر تارة حسنه، فقيل: (إنّ من البيان لسحراً). وتارة دقة فعله، حتى قالت الأطباء: الطبيعة ساحرة. وسمّوا الغذاء سحراً، من حيث إنّه يدق ويلطف تأثيره، قال تعالى: ((إنما أنت من المسحّرين)). قيل في معناه: ممّن جعل له سَحَر، تنبيهاً على أنه بشر، كما في قوله تعالى: ((ما أنت إلاّ بشر مثلنا))، وقيل معناه: ممن جعل له سِحْر يتوصل بلطفه ودقته إلى ما يأتي به ويدّعيه، وعلى الوجهين حمل قوله تعالى: ((إن هذا إلاّ سحر مبين)). ونحوه"[٢٩].

يتبيّن لنا مما سبق أنّ التعريفات التي أمكن الوقوف عليها متباينة، ويرجع هذا التباين إلى اختلاف وجهات النظر في السحر، وإلى أنه يطلق على علوم وفنون كثيرة، يلفها الغموض والإبهام، وتتخللها الشعوذات والأوهام والصدق والكذب[٣٠].

ويمكننا القول: إنّ السحر، هو تأثير خفي في النفس البشرية، يرجع إلى أسرار خاصة خفية تحدث أثراً في الشخص المسحور.

أنواع السحر

ذكر العلماء المسلمون عدّة أنواع للسحر، هي:

أولاً: السحر الذي يعتمد على الفلك والحساب، ونسبه الرازي إلى قوم كانوا يعدون الكواكب، ويزعمون أنها هي المدبّرة لهذا العالم، ومنها تصدر الخيرات والشرور، وهي سبب في السعادة والنحس، وهم الذين بعث الله تعالى إبراهيم عليه السلام مبطلاً لمقالتهم وراداً عليهم في مذاهبهم(٣١).وذكر ابن خلدون أنّ هذا النوع من السحر هو الذي يسمّى بالطلسمات عند الفلاسفة، يستعين صاحبه "بروحانيات الكواكب، وأسرار الأعداد، وخواص الموجودات، وأوضاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر، كما يقوله المنجمون، ويقولون: السحر اتحاد روح بروح، والطلسم اتحاد روح بجسم، ومعناه عندهم: ربط الطبائع العلوية السماوية، بالطبائع السفلية، والطبائع العلوية هي روحانيات الكواكب، ولذلك يستعين صاحبه في غالب الأمر بالنجامة(٣٢).

ويرى بعض الباحثين ومنهم محمد جعفر، أنّ الطلسم من عمل الشيطان، ويقول: "إنه العمل الذي يقوم به الساحر بمساعدة الشيطان، أو بناء على أمره على الورق أو القماش أو المعدن أو الخشب أو الأحجار الكريمة أو المعجون بشكل مخصوص في وقت مخصوص، وبحجم وصورة معينة لضرر نفر أو أكثر في شخصه أو ما يملكه.. والتعويذة أو التميمة: هي العمل الذي يقوم به أي شخص مختصّ غير الساحر على المواد السابق ذكرها لمنع تأثير السحر أو فساده لحاملها أو لأغراض أخرى، يقصد بها منفعة حاملها أو صاحبها دون غيره"[٣٣].

ثانياً: السحر الذي يعتمد على قوى النفس وهمة الساحر، يرى بعض العلماء أنّ النفوس مختلفة، وبعضها تستعلي على البدن وتنجذب إلى العالم العلوي، فتقوى قدرتها على التأثير في مواد هذا العالم، وتكون قادرة على بعض الحوادث الغريبة، ومثل ذلك القوى الخاصة التي يملكها الحاسد فيؤثر في المحسود، واستدل القائلون بذلك بجملة أدلة، نذكر منها:

- أنّ الشخص يمكنه المشي على خشبة ملقاة على الأرض بيسر، فإذا جعلت جسراً فوق نهر أو نُصبت في الأفق تعذّر أو عسر المشي فوقها، وقد يؤدي إلى سقوط الماشي، وما ذلك إلا أن تخيل السقوط متى قوي أوجبه. وهذا يدل على أنّ الأحوال الجسمانية، تابعة للأحوال النفسانية[٣٤].
- الإصابة بالعين، إذ ليس كل أحد يؤذي بالعين، والذين يؤذون بالعين تختلف أحوالهم، فمنهم من يصيد بالعين الطير في الهواء، ويقلع الشجر العظيم من الثرى، وآخر لا يصل بعينه إلى ذلك، بل التمريض اللطيف ونحو ذلك[٣٥].

ولا بدّ لمن اشتغل بهذه الصناعة الانقطاع عن المألوف من المشتهيات والأطعمة، والانقطاع عن مخالطة الخلق، وكلما كانت هذه الأمور أتمّ، كان التأثير أقوى.

ويرى بعض الباحثين أنّ تأثير الساحر في الآخرين لا يكون بهمّته المجرّدة، وإنما بمعين له من غيره، وذلك أنّ نفوس السحرة تتحد مع نفوس الشياطين، فيحدث عند ذلك الفساد والإفساد[٣٦].

ثالثاً: السحر الذي يعتمد على مخلوقات غير منظورة (الاستعانة بالأرواح الأرضية). أطلق كبار الفلاسفة تسمية (الأرواح الأرضية) على عالم الجن، ويرى بعضهم إمكانية اتصال النفوس البشرية بتلك الأرواح الأرضية، بل إنّ هذا الاتصال أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية؛ لأنّ المشابهة والمشاكلة بين نفوسنا وبين الأرواح الأرضية أتم وأشد منها مع الأرواح السماوية[٣٧].

يدل على هذا النوع قوله تعالى: ((وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً)). فالآية تدل على أنّ هناك اتصالاً بين الإنس والجن، وإنْ كان هذا الاتصال لا يثمر خيراً أبداً.

ويرى بعض الباحثين أنّ الساحر يتوجه بتعاويذه وابتهالاته إلى الجن والشياطين، ويقدّم لها فروض الطاعة والتذلل، ويقطع على نفسه العهود والمواثيق التي تخرجه من حظيرة الإيمان إلى حظيرة الكفر والشيطان. وأنّ بعض السحرة يتصل حقيقة بالجن -وإن ندر ذلك- في حين أن الكثرة الكاثرة منهم يدعون هذا الاتصال ويزعمونه، ويستخدمون وسائل شيطانية مختلفة لإثبات دعواهم، وهذه الفئة منهم، أشدّ السحرة خبثاً ومكراً ودهاءً, وقدرة على الإقناع، وسلباً لأموال السذّج من الناس، وأكثر انتشارهم في الأوساط المتخلفة والمضطربة(٣٨).

رابعاً: السحر الذي يعتمد على التخيّلات والأخذ بالعيون والشعبذة، ومبناه على أنّ البصر قد يخطئ ويشتغل بالشيء المعين دون غيره، ألا ترى ذا الشعبذة الحاذق يظهر عمل شيء يذهل أذهان الناظرين به، ويأخذ عيونهم إليه، حتى إذا استغرقهم الشغل بذلك الشيء بالتحديق ونحوه، عمل شيئاً آخر عملاً بسرعة شديدة، وحينئذٍ يظهر لهم شيء آخر غير ما انتظروه، فيثير إعجابهم، ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمله، ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجه، لفطن الناظرون لكل ما يفعله.

وهذا النوع شائع كثير الانتشار، حتى أنّ بعض البلدان تدرّسه في معاهد خاصة، كمعهد بنغلادش لتعليم فنون السحر، فيتدرب المشعوذون على مهارات وألعاب مختلفة، لدرجة أن يظهر أحدهم للمشاهد أنه يذبح إنساناً أو يطعنه ويريق دمه، ثمّ لا يلبث أن يرفسه فيقوم حياً كما كان(٣٩).

وقد تنطلي هذه الأعمال على بعض البسطاء فيظن أنّ المشعوذ يفعل هذا حقيقة، مع أنّ من المسلّمات في الدين والعلم استحالة ذلك، لأن الإحياء والإماتة بيد الله.

وذكر ابن كثير عن بعض المفسّرين، أنّ ما جرى بين يدي فرعون من سحر السحرة إنما كان من باب الشعبذة، يدل على ذلك قوله تعالى: ((فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم)). وقوله: ((يخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى)). قالوا ولم تكن تسعى في الأمر نفسه(٤٠).

خامساً: السحر الذي يعتمد على التقانات المتطورة، وهو الذي عبّر عنه الرازي بسحر الآلات المركبة على نسب هندسية، وضرب له مثلاً بفارس على فرس في يده بوق، كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق من غير أن يمسّه أحد. وهذا كما قال الرازي لا ينبغي عدّه في باب السحر، لأنّ له أسباباً معلومة يقينية، من اطلع عليها قدر عليها(٤١). أمّا في عصرنا هذا فنشاهد مثلها وأكثر غرابة حتى في لعب الأطفال.

سادساً: سحر الاستعانة بخواص الأدوية، كأن يجعل في طعامه بعض الأدوية المبلّدة المزيلة للعقل، فإنّ بعض الأدوية أو الأشربة أو الأطعمة لها تأثير في مزاج الإنسان، وتحدّث القرافي عن هذا النوع في فروقه وسمّاه (بالسيمياء) وهو عبارة "عما يركب من خواص أرضية كدهن خاص، أو مائعات خاصة توجب تخيلات خاصة"(٤٢).

سابعاً: سحر تعلّق القلب، وهو أن يدّعي الساحر أو المشعوذ أنه قد عرف الاسم الأعظم، وأنّ الجن يطيعونه وينقادون له، فإذا اتفق أن كان السامع لذلك ضعيف العقل، قليل التمييز، اعتقد أنه

حق، وتعلق قلبه بذلك، وحصل في نفسه نوع من الرعب والمخافة، وكلما اشتدّ الخوف ضعفت القوى الحاسة، فحينئذٍ يتمكن الساحر من أن يفعل ما يشاء.

ثامناً: السعي بالنّميمة بين الناس، ذكر ذلك غير واحد من العلماء، كالرازي وابن كثير والجصّاص الذي يقول: "فضرب آخر من السحر، وهو السعي بالنميمة والوشاية بها، والبلاغات والإفساد والتضريب من وجوه خفية لطيفة، وذلك عام شائع في كثير من الناس"(٤٣).

تاسعاً: ما يقوم به الحاوي أو الساحر من أعمال معتمداً على الخفة، فيتّخذ من الكلام أو الأفعال والحركات ستاراً يحجب به أعين الناس وعقولهم عمّا تفعله يداه من حيل.

عاشراً: ما يقوم به بعض المشعوذين من صنع الأحجبة والتمائم وما إليها مما لا يضرّ ولا ينفع بداية، لكن أثره فيما يحدثه من أثر نفسي عند المتعاملين به.

هذه أشهر أنواع السحر كما ذكرها العلماء، ويلاحظ أنّ بعضها لا يتناوله مفهوم السحر كالنوع الخامس والثامن، وإلى ذلك نبّه ابن كثير بعد أن لخّص ما ذكره الرازي من أنواع السحر، فقال: إنّ الرازي قد أدخل كثيراً من هذه الأنواع المذكورة في فن السحر للطافة مداركها، لأنّ السحر في اللغة عبارة عما لطف وخفي سببه(٤٤).

وقد لخّص ابن عاشور أصول السحر في ثلاثة فقط(٤٥)، وهي:

١-التأثير النفسي في المسحور، لضعف في نفس المسحور، ومن سوابق شاهدها المسحور واعتقدها، فإذا توجه إليه الساحر سُخّر له، كما في سحرة فرعون، قال تعالى: ((سحروا أعين الناس واسترهبوهم)).

٢-استخدام الخواص الطبيعية للأشياء، كخاصية الزئبق، أو العقاقير المؤثرة في العقول والأجسام، على تفاوت في تأثيرها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ((إنّ ما صنعوا كيد ساحر)).

٣-الشعوذة واستخدام السرعة وخفة الحركة والتموّج، حتى يخيّل الجماد متحرّكاً، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ((يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى)).

الاعتقاد بالتنجيم والسحر

إنّ الاعتقاد بتأثير الكواكب في السماء، في حياة الناس، وسائر الحوادث الأرضية، سيطر على أذهان العوام والمفكّرين على حدّ سواء، عبر تاريخ البشرية الطويل وحتى يومنا الحاضر، وهذا الاعتقاد ولّد نوعاً خاصاً من الكهانة، عُرف **بالتنجيم**، يرمي إلى الكشف عمّا سيحدث في المستقبل بملاحظة حركات النجوم وأوضاعها المختلفة. ويزعم المنجّمون "أنّ كل واحد من الكواكب الثابتة والسيّارة، وكل مجموعة من مجموعات النجوم المسماة باسم (البروج) يمتاز بنوع خاص من التأثير في مقدّرات الإنسان، ولذلك صاروا يرصدون حركات النجوم، ويتتبّعون حركاتها المختلفة، في معرفة ما سيحدث من الشؤون، في حياة الدول والأمم من جهة، وفي حياة الأفراد الذين يولدون في كل دقيقة وساعة من كل يوم من جهة أخرى(٤٦).

وممّا يلفت النظر أنّ النجامة كانت تدرّس في بعض الجامعات، مثل جامعة (بادرو)، وجامعة (ميلانو) الإيطاليتين، واستمر ذلك حتى أواخر القرن السادس عشر الميلادي. ونجد أنّ مؤرّخاً فرنسياً يعدّ من آباء فلسفة التاريخ وهو جان بودن (ت١٥٩٤م)، يتحدّث في بعض كتبه عن

التنبؤ، ويرى أنّ أحوال الدول مثل سائر أحوال البشر، تتبع الحركات السماوية بعد مشيئة الله، ويأتي بأمثلة عديدة وتفاصيل كثيرة عن تأثير الأجرام السماوية في سير الحوادث التاريخية[٤٧].

أما **السحر**، فالاعتقاد به أيضاً صاحَب الاعتقاد بالتنجيم، تُنبئ عن ذلك آيات القرآن الكثيرة، التي تشير إلى معرفة السحر عند الشعوب في سائر الحقب التاريخية، قال تعالى: ((كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلاّ قالوا ساحر أو مجنون)). (الذاريات/٥٢). كما أنّ هناك آيات عديدة تتحدث عن السحر والسحرة، كما في قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وحسبنا من ذلك سحر أهل بابل الذي أشار إليه النص القرآني في سورة البقرة، وذكر المفسّرون مسائل متنوّعة تتّصل بهذا النص الكريم، وفيما يلي نلقي نظرة سريعة عليها.

تفسير آيات السحر من سورة البقرة

((ولما جاءهم رسول من عند الله مصدّقاً لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا. يعلمون الناس السحر، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، وما يعلّمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر، فيتعلّمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وما هم بضارين به من أحد إلاّ بإذن الله، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون. ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون)). (البقرة/١٠٢-١٠٣).

يرى ابن تيمية أنّ هذه الآية هي الأصل في ذم تعاطي السحر، فقد أخبر سبحانه وتعالى أنّ من اعتاض بذلك، يعلم أنه لا نصيب له في الآخرة، وإنما يرجو بزعمه نفعه في الدنيا[٤٨].

ورد ذكر السحر –كما قلنا- في أكثر من موضع في القرآن الكريم، غير أنّ هذه الآيات الكريمة تعدّ عمدة الأحكام التي تتعلق بالسحر في كتاب الله، فلا بدّ لنا من الوقوف معها، والنظر فيها، والتعرّف على معانيها ومدلولاتها.

- مناسبة الآيات لما قبلها

وردت هذه الآيات في سياق ذكر قبائح أفعال اليهود، فقد ذكرت أنهم نبذوا كتاب الله، وأقبلوا على السحر، ودعوا الناس إليه، وذلك أنّ اليهود حين تردّوا مادياً وخلقياً إلى درجة كبيرة، وفقدوا كل فضيلة، نتيجة استعبادهم وأسرهم وجهلهم وفقرهم وتيههم وتشرّدهم لجأوا إلى السحر والشعبذة والعرافة والدجل وغيره، وراحوا يخادعون أنفسهم بأنهم يستطيعون التنبؤ بمصائرهم من غير مشقة ولا عمل، فأضلّتهم الشياطين وأغوتهم، فنسبوا السحر والطلمسات إلى نبيّ الله سليمان، وزعموا أنه كان مديناً بملكه العريض، وقواه الخارقة للسحر والشعوذة، فأسلموا أنفسهم لهذا الزعم، وشرعوا يزاولون السحر وفنونه، مما أسفر عن إهمالهم التوراة، وصمّوا آذانهم عن كل دعوة إلى هدى الله[٤٩].

- سبب النزول

ذكر ابن الجوزي في سبب نزول هذه الآيات قولين:

أحدهما: أنّ اليهود كانوا لا يسألون الرسول صلى الله عليه وسلم عن شيء من التوراة إلاّ أجابهم، فسألوه عن السحر وخاصموه به، فنزلت هذه الآيات.

الثاني: أنه لما ذكر سليمان في القرآن، قالت يهود المدينة: ألا تعجبون لمحمد، يزعم أنّ ابن داود كان نبيّاً؟ والله ما كان إلاّ ساحراً، فنزلت هذه الآية(٥٠). والآية مع سبب نزولها تشير إلى ما درج عليه اليهود من القبائح والجرائم، فمع أنّ سليمان بن داود ينتسب إلى بيت فيه النبوة والملك والسمعة الحسنة، اجتمعوا على إشاعة تلك الأكاذيب من حوله، يبثونها في العامة، ليتحقق لهم أمران:

الأول: نسبة سليمان إلى السحر والكفر، لتبرير ما هم عليه من الفظائع، ولتشويه سمعته عند أهل ذلك الزمان، لتنقيص سمعة خلفه من أبنائه.

الثاني: تشجيع العامة الذين كانوا يستعظمون ملك سليمان وابنه على شقّ عصا الطاعة، بأنّ سليمان ما تمّ له الملك إلاّ بتلك الأسحار والطلاسم، وأنهم يستطيعون أن يفعلوا فعله طالما ظفروا بها(٥١).

بيان معاني الآيات

جاءت هذه الآيات تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم في سياق ذكر بعض قبائح اليهود في عدم أخذهم بما انطوى عليه كتاب الله من التبشير بنبوة محمد وصفته، وتوجب عليهم الإيمان به، فجحدوا وأصروا على إنكار نبوته. وطرحوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون أنه كلام الله أو أنه صدق وحق، واتبعوا طرق السحر والشعوذة التي كانت تحدثهم بها الشياطين في عهد ملك سليمان(٥٢).وهم في ذلك مخالفين لما جاء في التوراة نفسها (٥٣)، وأن ما قالوه عن سليمان أنه كان ساحراً غير صحيح. ففي قوله تعالى "وما كفر سليمان" تنزيه لسليمان عن عمل السحر وتنفير للناس من السحر(٥٤). فالآيات تدل على أن تعلم السحر كفر سواء أكان من أجل العمل به أو لدفع أذاه(٥٥). إن أقصى تأثيرات السحر-كما يرى بعض المفسرين- هي التفريق بين الزوجين، إما باستعمال مفسدات لعقل أحدهما حتى يبغض صاحبه، أو باتباع الحيل والنميمة حتى تحصل الفرقة بينهما(٥٦).

وتدل أيضاً على أن السحر لا يعود على صاحبه بالنفع، بل على العكس، يعود عليه بالضرر والخسران في الدنيا والآخرة (٥٧). وأخيراً فإن الآيات ترشد إلى أن اليهود لو آمنوا بمحمد واتّقوا الله فلم يقدموا على إنكار ما بشّرت به كتبهم لكانت لهم مثوبة من عند الله، وهي خير من كل نفع حملهم على المكابرة، قال الطبرسي: "وفي هذه الآية دلالة على بطلان قول أصحاب المعارف، لأنه نفى ذلك العلم عنهم"(٥٨).

دلالات الآيات وإشاراتها

أولاً: عدم فلاح الساحر: بيّنت الآية الكريمة بما لا يدع مجالاً للشكّ ضرر السحر، وأنّ من اتّبع طرقه فقد باع آخرته بدنياه، إذ فيها الذم الصريح لمن تعاطى هذه التجارة الخاسرة. وهذا ما صرح به ابن تيمية، إذ يرى أنّ قوله تعالى: ((واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا –إلى قوله- ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون)). صريح في ذم من يتعاطى السحر للحصول على منافع دنيويّة بسيطة فقد أخبر سبحانه وتعالى أن من اعتاض بذلك يعلم أنه لا نصيب له في الآخرة، وإنما يرجو بزعمه نفعه في الدنيا، كما يرجون بما يفعلونه من السحر المتعلق بالكواكب وغيرها مثل الرياسة والمال. وأنّ الإيمان والتقوى خير لهم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ((ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم

يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتّقون)). وقال في قصّة يوسف: ((وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض، يَتَبَوَّأُ منها حيث يشاء، نُصيب برحمتنا من نشاء، ولا نضيع أجر المحسنين، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتّقون)). (يوسف/٥٧). فأخبرت الآيات أنّ أجر الآخرة خير للمؤمنين المتّقين مما يعطون في الدنيا من الملك والمال كما أعطي يوسف عليه السلام"[٥٩].

ويرى ابن تيمية أنّ الساحر من أي نوع كان سحره، أبعد الناس عن أسباب الفوز والفلاح؛ لأنه مجانب للإيمان والتقوى، وقد أخبر سبحانه سوء عاقبة من ترك الإيمان والتقوى في غير آية في الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى: ((لا يفلح الساحر حيث أتى)). والمفلح الذي ينال المطلوب، وينجو من المرهرب[٦٠].

ثانياً: أكل أموال الناس بالباطل: تعدّدت صور أكل أموال الناس بالباطل، وربّما كان أقبحها ادعاء طائفة من الناس في الأزمان المتعاقبة معرفة الغيب والقدرة على جلب النفع أو دفع الضرر عنهم، وهذا ما نراه قد فشا بينهم في زماننا هذا أيضاً، بسبب ضعف العقيدة في نفوس فئة من الناس، سواء الذين جروا خلفها اعتقاداً بها، أو الذين استخفوا عقول الناس، وتجرءوا على أكل أموالهم بالباطل، مع أنّ كتاب الله ناطق بتحريم ذلك في أكثر من موضع، قال تعالى: ((ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل))، والباطل: هو ما لم يكن في مقابله شيء حقيقي، وهو من البطل، والبطلان الضياع والخسارة، فقد حرّمت الشريعة أخذ المال دون مقابل، ورضا من يؤخذ منه، وكذلك إنفاقه في غير وجه حقيقي نافع. قال رشيد رضا: "ومن هؤلاء الموهمين باعة التولات والتناجيس(٦١)، والتمائم والعزائم.. وقد كنّا نسمع عن رؤساء بعض النصارى نحو هذا، في بيع العبادة التي يسمّونها القداديس، فنسخر منهم، حتى علمنا أننا قد اتّبعنا سننهم شبراً بشبر حتى دخلنا في جحر الضب الذي دخلوه"(٦٢). وتكشف بعض الأسئلة التي وجّهت إلى ابن تيمية، عن مثل هذه الحالة السيئة التي وصل إليها بعض أهل عصره، ومن ذلك سؤال الناس له عن حكم المنجّمين الذين يجلسون على الطرق، وفي الحوانيت وغيرها، وتجلس عندهم النساء، ويزعم هؤلاء المنجّمون أنهم يخبرون بالأمور المغيبة، معتمدين في ذلك على صناعة التنجيم، ويكتبون للناس الأوفاق، ويسحرون ويكتبون الطلاسم، ويعلمون النساء السحر لأزواجهم وغيرهم، ويجتمع النساء والرجال على أبواب الحوانيت بسبب ذلك، وربما آل الأمر إلى غير ذلك من إفساد النساء على أزواجهن، وإفساد عقائد الناس، وتعلّق همجهم بالسحر والكواكب، وإعراضهم عن الله عز وجل، والتوكّل عليه في الحوادث والنوازل(٦٣).وما ورد في هذا السؤال يدلّ على افتتان الناس آنذاك بالتنجيم والشعوذات، وهو يشبه إلى حد بعيد ما نراه اليوم عند بعض الفئات في المجتمعات الإسلامية، وازدحام الناس على أبواب السحرة والمشعوذين، أو طلبهم وإن بعدت دارهم.

وقد أفتى ابن تيمية بحرمة صناعة التنجيم، وحرمة أخذ الأجرة عليها، كما أنه يحرم بذل الأموال لهم، ولا يجوز تأجيرهم الحوانيت وغيرها لهذه الصنعة. وبعد أن ساق الأدلة الدالة على تحريم السحر والتنجيم والكهانة وغيرها من مسمّيات أدعياء الغيب، قال: "وقد تبيّن بما ذكرناه أنّ الأجرة المأخوذة على ذلك، والهبة، والكرامة، حرام على الدافع، والآخذ، وأنّه يحرم على الملاك والنظّار والوكلاء إكراء الحوانيت المملوكة أو الموقوفة أو غيرها من هؤلاء الكفار والفسّاق بهذه المنفعة، إذا غلب على ظنّهم أنهم يفعلون فيها هذا الجبت الملعون"(٦٤).

ويرى أنه يجب محاربة هؤلاء المفسدين على مختلف الصعد، الرسمية والشعبية، يقول: "ويجب على ولي الأمر وكل قادر السعي على إزالة ذلك، ومنعهم من الجلوس في الحوانيت أو الطرقات، أو دخولهم على الناس في منازلهم لذلك، وإن لم يفعل ذلك، فيكفيه قوله تعالى: ((كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه)). (المائدة/٧٩). وقوله تعالى: ((لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت)). (المائدة/٦٣) فإنّ هؤلاء الملاعين يقولون الإثم، ويأكلون السحت بإجماع المسلمين، وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم برواية الصدّيق عنه أنه قال: "إنّ الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيّروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه"(٦٥)، وأي منكر أنكر من عمل هؤلاء الأخابث، سوس الملك، وأعداء الرسل، وأفراخ الصابئة عباد الكواكب؟! فهل كانت بعثة الخليل -صلاة الله وسلامه عليه- إمام الحنفاء إلاّ إلى سلف هؤلاء؟ فإنّ نمرود بن كنعان كان ملك هؤلاء، وعلماء الصابئة هم المنجّمون ونحوهم، وهل عبدت الأوثان في غالب الأمر إلاّ عن رأي هذا الصنف الخبيث، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله(٦٦).

وعدّ ابن تيمية محاربة طائفة الدجّالين هذه من أفضل الجهاد في سبيل الله، وذلك في جوابه لمن سأله عن صناعة التنجيم، والاستدلال بها على الحوادث، هل هو حلال أم حرام؟ وهل يحلّ أخذ الأجرة وبذلها أم لا؟ وهل يجب على ولي الأمر منعهم؟

فأجاب بأنّ ذلك محرّم بإجماع المسلمين، وكذا أخذ الأجرة عليه، ويجب منعهم من الجلوس لذلك، ومنع الناس أن يكروهم، والقيام في ذلك من أفضل الجهاد في سبيل الله(٦٧).

ويحذّر بعض الذين ينتسبون إلى التديّن، ولا يتورّعون عن هذه الأعمال الشيطانية، أن يأخذوا بنصيب من قوله تعالى: ((ولما جاءهم رسول من عند الله ...))(٦٨). وجملة القول أنّ عمل هؤلاء لا يقرّه الشرع، وواجب العلماء تحذير العوام، لأنّ الجاهل بالشرع، عرضة لقبول الإيهام والغشّ من الدجالين والمحتالين، وتبصير الناس بالدين يحول دون وقوعهم في حبائل المشعوذين.

ثالثاً: الأنبياء ليسوا سحرة: أخبرتنا الآيات الكريمة أيضاً عن خصلة عجيبة من خصال اليهود، وهي نبذهم كتاب الله، وطرحه وراء ظهورهم، وإقبالهم على السحر والشعوذة، واتباعهم ما يقصّه الشياطين عن عهد سليمان، وما يضللون به الناس من دعاوى مكذوبة عليه، واتهامهم له بالسحر، وأنّ ملكه قام على أساس السحر والطلمسات، فنفى القرآن عن سليمان أنه كان ساحراً بقوله تعالى: ((وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر)). قال القرطبي: "ولم يتقدّم في الآية أنّ أحداً نسبه إلى الكفر، ولكن اليهود نسبته إلى السحر، ولما كان السحر كفراً، صار بمنزلة من نسبه إلى الكفر"(٦٩). واختلف في السبب الذي لأجله أضافت اليهود السحر إلى سليمان عليه السلام، ويرجع الطبري ذلك إلى أنّ من اشتغل بالسحر من اليهود وركب ما حرّم الله، أراد تزيين عمله وتبريره عند الذين لا علم لهم بما أنزل الله في السحر، فادّعوا أنه سخّر الإنس والجن والشياطين وسائر خلق الله بالسحر، فنفى الله عن سليمان أن يكون ساحراً أو

كافراً، وأعلمهم أنهم إنما اتبعوا –في عملهم بالسحر- ما تلته الشياطين في عهد سليمان، دون ما كان سليمان يأمرهم من طاعة الله واتباع أمره(٧٠)، ثمّ ساق الأخبار والآثار التي تثبت ذلك، نذكر منها:

- ما جاء عن سعيد بن جبير قال: كان سليمان يتتبع ما في أيدي الشياطين من السحر، فيأخذه، فيدفنه تحت كرسيه في بيت خزانته، فلم تقدر الشياطين أن يصلوا إليه، فدنت إلى الإنس فقالوا لهم: أتريدون العلم الذي كان سليمان يُسخّر به الشياطين والرياح وغير ذلك؟ قالوا: نعم، قالوا: فإنه في بيت خزانته وتحت كرسيه، فاستثارته الإنس، فاستخرجوه فعملوا به(٧١).
- وعن قتادة قال: كتبت الشياطين كتباً فيها سحر وشرك، ثم دفنت تلك الكتب تحت كرسي سليمان، فلما مات سليمان استخرج الناس تلك الكتب، فقالوا: هذا علم كتمناه سليمان! فقال الله تعالى: ((واتبعوا ما تتلوا الشياطين..)) الآية، وفي رواية أنهم استخرجوها، وعلّموها الناس، فأخبرهم أنّ هذا علم كان يكتمه سليمان ويستأثر به، فعذر الله نبيه سليمان وبرأه من ذلك(٧٢).ويلاحظ أنّ أكثر الروايات تشير إلى أن ملك سليمان قام على السحر. ولا شكّ أنّ هذه الأوهام والأكاذيب على نبيّ الله سليمان عليه السلام مما اختلقه بعض الدجالين من بني إسرائيل.

ولا يبعد أن يكونوا وَسْوَسُوا بذلك إلى بعض المسلمين، وربما صدقوهم في بعض ما زعموه من حكايات السحر، وكذبوهم فيما رموا به سليمان من الكفر. يقول الشيخ رشيد معلقاً على ما انتحله الدجالون في ذلك: "ولا شكّ أنّ ما قالوه على سليمان وملكه من خبر السحر والكفر مكذوب، افتراه أهل الأهواء، وقد قصّه الله تعالى علينا، لنعتبر بما افتراه هؤلاء الناس على الأنبياء، وبترجيح من خلفهم الاشتغال بذلك، على الاهتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم"[٧٣].

والذي يلفت النظر ما تشير إليه الآيات من حرص اليهود على أن يذيعوا بين الناس توارثهم السحر عن سليمان، ونسبته إلى الملكين هاروت وماروت، وقصدهم من ذلك أن يجعلوا للسحر سنداً صحيحاً، مرفوعاً إلى الأنبياء، والملائكة الأبرار، مع أنّ السحر من الأمور التي يتحاشى عنها مقام الأنبياء والملائكة[٧٤].

يقول ابن تيمية: "أما الأحكام التي هي من جنس السحر فمن الممتنع أن يكون نبي من الأنبياء كان ساحراً". ويضيف: "لما سخر الله له –أي لسليمان- الجن والإنس والطير زعم قوم أنّ ذلك بأنواع من السحر، حتى أن طوائف من اليهود والنصارى لا يجعلونه نبياً بل حكيماً، فنزّهه الله عن ذلك"[٧٥].

ومع ما في الآيات من تشنيع ظاهر على السحر، وتبرئة الأنبياء منه، وتحذير المؤمنين من الوقوع فيه، رأينا المجتمع الإسلامي، في عصوره المتعاقبة، يبتلى بالمشعوذين والدجّالين. يقول الشيخ رشيد: "وإنك لترى دجاجلة المسلمين إلى اليوم، يتلون أقساماً وعزائم، ويخطّون خطوطاً وطلاسم، ويسمون ذلك خاتم سليمان وعهوده، ويزعمون أنها تقي حاملها من اعتداء الجن، ومسّ العفاريت"[٧٦].

ومنهم من يكذب على النبي صلى الله عليه وسلم ويقول: إنّ نجمه كان بالعقرب والمريخ[٧٧]. وينسب بعضهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا تسافر والقمر في العقرب"[٧٨]. وقد ردّ ابن تيمية هذه المزاعم، وقال في هذا الحديث بأنّه كذب مختلق باتفاق أهل الحديث[٧٩].

ويزعم بعض هؤلاء الدجاجلة أنّ نبي الله إدريس عليه السلام قد اشتغل بالتنجيم، وأنهم يتابعونه في هذه الصنعة. ولا يخفى أنّ هذا رجم بالغيب، وافتراء على أنبياء الله، وقد انبرى ابن تيمية لأصحاب هذا القول، وردّه من وجوه[٨٠]:

١-هذا القول قول بلا علم، لأنّ هذا لا يُعلم إلاّ بالنقل الصحيح، ولا سبيل إليه. وغاية ما في الأمر أنّ في كتبهم (هرمس الهرامسة) ويزعمون أنه إدريس.

٢-إذا سلمنا أنّ أصله مأخوذ عن إدريس، فإنه كان معجزة له، وعلماً من العلوم النبوية. في حين أنّ هؤلاء يحتجّون بالتجربة والقياس، لا بأخبار الأنبياء.

٣-إن كان بعض هذا مأخوذاً عن الأنبياء، فقد لحقه من التغيير والتبديل، وفيه من الكذب والأباطيل، أضعاف ما هو مأخوذ من ذلك النبي، ذلك أننا نقطع أنّ الله أنزل التوراة والإنجيل والزبور كما أنزل القرآن، وأمرنا بالإيمان بها: ((قولوا آمنا بالله، وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيّون من ربهم، لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون)). (البقرة/١٣٦). ومع ذلك أخبرنا أنّ أهل الكتاب حرّفوا وبدّلوا، وكذّبوا وكتموا، فإذا كانت هذه حال الوحي المحقّق، والكتب المنزلة يقيناً، مع أنها إلينا أقرب عهداً من إدريس، ونقلتها أوثق من نقلة النجوم، وأبعد عن الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر، فما الظن بهذا القدر إن كان فيه ما هو منقول عن إدريس؟

وثبت في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا، وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له مسلمون"[٨١]. فإذا كنّا فيما يحدثنا به أهل الكتاب مأمورين أن لا نصدق إلا بما نعلم أنه الحق، كما لا نكذب إلا بما نعلم أنه باطل، فكيف يجوز تصديق هؤلاء فيما يزعمون أنه منقول عن إدريس عليه السلام؟

٤-النجوم نوعان: حساب، وأحكام: أمّا الحساب فهو معرفة أقدار الأفلاك والكواكب، وصفاتها، ومقادير حركاتها، وما يتبع ذلك، فهذا في الأصل علم صحيح لا ريب فيه، فإن كان أصل هذا مأخوذاً عن إدريس فهذا ممكن، والله أعلم بحقيقة ذلك، كما يقول بعضهم: إنّ أصل الطب مأخوذ عن بعض الأنبياء.

وأما الأحكام التي هي من جنس السحر، فمن الممتنع أن يكون نبي من الأنبياء كان ساحراً، وسائر أنواع السحر التي يذكرونها، لا تخلو من شرك، وكل من آمن بالله ورسوله، ينزه أنبياء الله عن علمه أو عمله أو الأمر به. وما إضافة ذلك إلى بعض الأنبياء، إلا كإضافته إلى سليمان عليه السلام لما سخّر الله له الجن والإنس والطير، فزعم قوم أن ذلك كان بأنواع من السحر، فنزّهه الله عن ذلك، فقال تعالى: ((واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلّمون الناس السحر)).

ويمضي ابن تيمية في ذكر تهافت أدلة المنجمين، في نسبة علمهم إلى الأنبياء، ويسوق أمثلة من التاريخ الإسلامي فيما نسب إلى بعض الأئمة وكذب عليهم، إذ نسب إلى علي بن أبي طالب من أنواع الكذب ما لا يجوز نسبته إلى أقل المؤمنين، حتى أضافت إليه القرامطة والباطنية والخرمية والمزدكية مذاهبها التي هي من أفسد مذاهب العالمين، وادعوا أن ذلك من العلوم الموروثة عنه.

فإذا كان ذلك وغيره في أقل من سبعمئة سنة، فكيف الظن بما يضاف إلى إدريس وغيره من الأنبياء، من أمور النجوم والفلسفة، مع تطاول الزمان، وتنوّع الحدثان، واختلاف الملك والملل والأديان، وعدم من يبين حقيقة ذلك من حجة وبرهان، واشتمال ذلك على ما لا يحصى من الكذب والبهتان؟[٨٢].

رابعاً: هل للسحر حقيقة وتأثير في الواقع؟ اختلف العلماء في ذلك، فذهب جمهور العلماء إلى أنّ السحر حقيقة، وأنه تقتدر به النفوس البشرية على التأثير في عالم العناصر، وأنّ النفوس الساحرة مراتب -كما أسلفنا- وأنّ هذه المراتب تنال بالرياضة، ورياضة السحر بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة، ولهذا كان السحر كفراً، ويرون أنّ الساحر يقدر على الأفعال الغريبة، فيطير في الهواء ويصوّر المرء بغير صورته.

ويرى المعتزلة وبعض أهل السنّة أنّ السحر لا حقيقة له، وإنما هو خداع وتمويه وإيهام وتضليل، وإلى هذا ذهب أبو جعفر الاستراباذي من الشافعية، وأبو بكر الرازي من الحنفية، وابن حزم الظاهري وغيرهم، واستدلوا بقوله تعالى: ((يخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى)). (طه/٦٦)، وأدلّة أخرى نذكر بعضها بعد قليل.

وذهب بعض العلماء إلى أنّ الساحر لا يقدر على أكثر مما أخبر الله به من التفرقة بين الزوج وزوجته، لأنّ الله ذكر ذلك في معرض الذم للسحر، وبيّن ما هو الغاية في تعليمه، (فيتعلّمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه) ولو كان يقدر على أكثر من ذلك لذكره[٨٣].

أمّا الفريق الثاني فيرجع السحر إما إلى تمويه وخفة في اليد، وإما إلى مواطأة، وإما إلى سعي ونميمة، ولا يرون الساحر يقدر على شيء مما يثبته له الآخرون من التأثير في الأجسام الأخرى دون مادة، أو خلق الجسم والحياة والطعم وما إليها، مما لا يقدر عليه غير الله تعالى، ومن أدلتهم:

- "أنا لو جوّزنا أن يكون في الناس من يقدر على خلق الجسم والحياة والألوان، لقدر ذلك الإنسان على تحصيل الأموال العظيمة من غير تعب، لكنّا نرى من يدّعي السحر يحصل على الحقير من المال بجهد جهيد، فعلمنا كذبه، وبهذا الطريق نعلم فساد ما يدّعيه قوم من الكيمياء - أي تحويل بعض المواد إلى ذهب- لأنا نقول لو أمكنهم ببعض الأدوية أن يقلبوا غير الذهب ذهباً، لكان إما أن يمكنهم ذلك بالقليل من الأموال، فكان ينبغي أن يغنوا أنفسهم بذلك عن المشقة والذلة، أو لا يمكنهم إلا بالآلات العظام والأموال الخطيرة، فكان يجب أن يظهروا للملوك المتمكنين من ذلك، بل يجب أن يفطن الملوك لذلك، لأنه أنفع لهم من فتح البلاد الذي لا يتم إلا بإخراج الأموال والكنوز، وفي علمنا بانصراف النفوس والهمم عن ذلك دلالة على فساد هذا القول"[٨٤].

وقال أبو بكر الجصّاص: "وحكمة كافية تبيّن لك أنّ هذا كلّه مخاريق وحيل لا حقيقة لما يدّعون لها، أنّ الساحر والمعزم لو قدرا على ما يدّعيانه من النفع والضرر من الوجوه التي يدّعون، وأمكنهما الطيران والعلم بالغيوب، وأخبار البلدان النائية، والخبيئات والسرقة والإضرار بالناس

من غير الوجوه التي ذكرنا، لقدروا على إزالة الممالك، واستخراج الكنوز، والغلبة على البلدان بقتل الملوك بحيث لا يبدؤونهم بمكروه، ولما مسّهم السوء، ولامتنعوا عمّن قصدهم بمكروه، ولاستغنوا عن الطلب لما في أيدي الناس، فإن لم يكن كذلك، وكان المدّعون لذلك أسوأ الناس حالاً، وأظهرهم فقراً وإملاقاً، علمت أنهم لا يقدرون على شيء من ذلك"(٨٥).

ويجيب الرازي عن هذا بقوله: "فلقائل أن يقول: الكلام في الإمكان غير، ونحن لا نقول بأنّ هذه الحالة حاصلة لكل أحد، بل هذه الحالة لا تحصل للبشر إلاّ في العصور المتباعدة، فكيف يلزمنا ما ذكرتموه؟"(٨٦).

وإذا أمعنا النظر في أدلة النافين والمثبتين لحقية السحر، وجدناها لا تنهض بالدعوى التي أقيمت عليها، وقد يستطيع الباحث –إذا ما استثنينا الأقوال المفرطة في ما يمكن أن يقوم به الساحر كقول القرطبي أنه يمكنه إزالة العقل وتعويج عضو وغير ذلك مما لا يستطيعه البشر- يستطيع أن يجمع بين القولين، بأنّ بعض أنواع السحر مؤثرة لا شكّ في ذلك بواسطة عقاقير وأدوية يعرفها أهل هذه الصنعة دون غيرهم، وبعضها الآخر يعتمد على التمويه والخداع والتخييل والدهاء، فإنّ هذا يُحدِث أثراً ما بمشيئة الله تعالى لقوله: ((وما هم بضارين به من أحد إلاّ بإذن الله)).

وينبغي التنبيه على بعض ما روي من خوارق السحرة، كالحديث الذي يروونه أنّ امرأة أتت عائشة، فقالت: إني ساحرة فهل لي من توبة؟ وحديث ساحرة ابن هبيرة... وغيرها من الأخبار، فإنّ رائحة الوضع تنبعث منها، فهي من تلفيق الجاهلين أو من وضع الملاحدة لإفساد الدين بهذه الأخبار الضعيفة، وتشكيكهم في النبوآت(٨٧).

ولعلّ في أقوال بعض العلماء الذين أثبتوا للسحر حقيقة وتأثيراً ما يفيد خلاف ذلك، كما في تعريف الشوكاني للسحر بأنه: "ما يفعله الساحر من الحيل والتخييلات التي تحصل بسببها للمسحور ما يحصل من الخواطر الفاسدة الشبيهة بما يقع لمن يرى السحاب فيظنّه ماء..."(٨٨)، أو ما يجعل ذلك في نطاق ضيّق جداً، وأكثر أدعيائه من الدجاجلة المشعوذين، وقد مرّ بنا أنّ الرازي يرى بأنّ ذلك يحصل لآحاد الناس في العصور المتباعدة. وهذا أبو حيان يقول: "وأما في زماننا الآن فكل ما وقفنا عليه في الكتب فهو كذب وافتراء، ولا يترتب عليه شيء، ولا يصحّ منه شيء البتّة، وكذلك العزائم وضرب المندل، والناس الذين يعتقد فيهم أنهم عقلاء، يصدّقون بهذه الأشياء ويصغون إلى سماعها"(٨٩).

وأقول: إنّ ما نراه أيضاً في زماننا هذا لا يخرج عمّا ذكره أبو حيان، وربما يكون الأمر كذلك في سائر الأزمان وأغلب الأحوال.

وعليه فلا مبرّر لانتشار المنجّمين بهذه الكثرة، وظهورهم في وسائل الإعلام المختلفة، وحديثهم عمّا تنطق به النجوم من طالع. وكذا أضرابهم من المشعوذين الذين يزعمون أنهم يملكون قوى خفيّة، يستطيعون تسخيرها في حاجات الناس، وأن ما عندهم من الأسرار والرقى تشفي من كل داء. كل هذه ضروب من الإيهام والاسترهاب لأكل أموال الناس بالباطل، فعلم الغيب لله وحده، ولا يعلم عن طريق النجوم والأفلاك، ولا عن طريق الكهانة والجن. وما النجوم والكواكب إلاّ أجرام سماوية مادية غير عاقلة ولا مدركة ولا روح فيها.

وهذا ما بذل علماء الإسلام جهداً كبيراً في تبيينه للناس كابن تيمية، الذي بيّن حقيقة النجوم، وأنها من خلق الله، وآياته الدالة عليه، المسبّحة له، قال تعالى: ((ألم تر أنّ الله يسجد له من في

السموات ومن في الأرض، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس)). (الحج/١٨). ومن منافع النجوم التي أخبرنا بها الله سبحانه في كتابه:

١-الاهتداء بها في ظلمات البر والبحر

٢-أنها زينة للسماء الدنيا.

٣-ترجم بها الشياطين.

وربّما كان لها فوائد أخرى، كمنافع الشمس من الترطيب والتيبيس، وما يجعله الله سبحانه من الحرّ والبرد والليل والنهار، ونضج الثمار، وغير ذلك من الأمور المشهودة، فإن كان لها تأثير فهو من هذا القبيل[٩٠].

وناظر ابن تيمية رؤساء المنجّمين في دمشق، وبيّن لهم فساد صناعتهم بالأدلة العقلية، التي اعترفوا بصحّتها، وقال أحدهم: والله إنا نكذب مئة كذبة حتى نصدق في كلمة. يقول ابن تيمية: "وذلك أن مبنى علمهم على أن الحركات العلوية هي السبب في الحوادث، والعلم بالسبب يوجب العلم بالمُسبب، وهذا إنما يكون إذا علم السبب التام الذي لا يتخلّف عنه حكمه، وهؤلاء ليس علمهم إلا جزء يسير من جملة الأسباب الكثيرة، ولا يعلمون بقية الأسباب ولا الشروط ولا الموانع، فعلمهم كعلم من يعلم أنّ الشمس في الصيف تعلو الرأس حتى يشتد الحر، فيريد أن يعلم من هذا مثلاً: أنه حينئذٍ أنّ العنب الذي في الأرض الفلانية يصير زبيباً، على أنّ هناك عنباً وأنه ينضج، وينشره صاحبه في الشمس في وقت الحر فيتزبب، فهذا وإن كان يقع كثيراً، لكن أخذ هذا من مجرد حرارة الشمس جهل عظيم، إذ قد يكون هناك عنب وقد لا يكون، وقد يثمر ذلك الشجر وقد لا يثمر، وقد يؤكل عنباً، وقد يعصر، وقد يسرق، وقد يزبب وأمثال ذلك"[٩١].

حكم الذهاب إلى السحرة والكهان

ذكر العلماء أدلّة كثيرة تبيّن موقف الإسلام من قضايا السحر والكهانة والتنجيم، تارة بالنهي عن تصديقهم واتباعهم، وتارة بالتحذير منهم والاغترار بأقوالهم، وثالثة بذكر خصالهم التي تنفر المؤمنين منهم مقارنة بأحوال الأنبياء والصالحين.

ومن ذلك ما أخرجه مسلم وغيره عن معاوية بن الحكم السلمي، قال: قلت: يا رسول الله، أموراً كنا نصنعها في الجاهلية، كنّا نأتي الكهان، قال: (فلا تأتوا الكهان)[٩٢]. فهذا يدلّ أولاً على أنّ هذا من عمل أهل الجاهلية، وثانياً: نهي النبي عليه السلام عن إتيانه.

كما روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي -عليه السلام- عن النبي عليه السلام قال: (من أتى عرّافاً فسأله عن شيء فصدّقه بما يقول، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة)[٩٣].

وقوله: (من أتى كاهناً فصدّقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد -عليه السلام)[٩٤].

وقال ابن عبّاس في قوم يكتبون (أبا جاد) وينظرون في النجوم: "ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق"[٩٥].

ويؤخذ من ذلك أنّه لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن، والتصريح بأنّ السحر والكهانة والتطير وأبا جاد كلها كفر، وكذا العرافة، لأنّ العراف -كما يقول البغوي- هو الذي يدّعي معرفة الأمور بمقدّمات يستدل بها على المسروق، ومكان الضالة ونحو ذلك. وقيل: هو الكاهن، وهو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل. وقيل: الكاهن الذي يخبر عمّا في الضمير. وتقدم قول ابن

تيمية، أنّ العرّاف هو اسم للكاهن، والمنجّم، والرّمال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق.

فكلّ أنواع السحر حرّمها الله –تعالى- يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد)[٩٦]. وقوله: (من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً وكّل إليه)[٩٧]. ويقول: (إنّ العيافة، والطَّرق، والطّيرة من الجبت)[٩٨] والعيافة: زجر الطير. والطرق: الخط يخط بالأرض، والجبت: السحر، قال تعالى: ((يؤمنون بالجبت والطاغوت))، أي: الشيطان، وقيل الطواغيت: الكهان. ويقول: (اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله وما هنّ؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولّي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)[٩٩]. ويقول: (حدّ الساحر ضربه بالسيف)[١٠٠].

وعن بجالة بن عبدة قال: كتب عمر بن الخطاب: (اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر)[١٠١].

فهذه الآثار تدل على كفر الساحر، وأنه يقتل ولا يستتاب، كيف لا ومنهم من يكتب كلام الله بالنجاسة أو يقلبونه، ومنهم - كما يقول ابن تيمية - من يدخل الحمام ويطأ المصحف بقدمه، أو يتغوط عليه ونحو ذلك من أفعال الكفر والردّة[١٠٢].

حكم التداوي بالرقى، واستخدام الجن من قبل الإنس

ذهب جمهور العلماء إلى تحريم الاستعاذة بالمخلوقات، وإنما يستعاذ بالخالق -تعالى- وأسمائه وصفاته.

كما نهى علماء المسلمين عن الرقى التي لا يفقه معناها، لأنّها مظنة الشرك، وإن لم يعرف الراقي أنها شرك[١٠٣].

ولهذا نهوا عن التعازيم والأقسام التي يستعملها بعض الناس في حق المصروع وغيره، التي تتضمن الشرك، كما نهوا عن كل ما لا يعرف معناه من ذلك خشية أن يكون فيه شرك.

ويرى ابن تيمية أنّه لا تجوز الاستعانة بالجن المسلم، كما يدّعي بعضهم في العلاج، وفصّل ابن عثيمين هذه المسألة في ردّه على من فهم من كلام ابن تيمية مشروعية الاستعانة بالجن المسلم في العلاج، وقال: إنّه لا يرى في كلام شيخ الإسلام ما يسوغ لهم هذا، لأنّ من البديهيات المسلّم بها أنّ الجنّ من عالم الغيب، عرفنا من أوصافه أنّه يغلب عليه الكذب، وأنه معتد، ظلوم، غاشم، مجهولة عدالته، فما هو المقياس إذن الذي نحكم به عليه، فندّعي أنّ هذا الجنّي مسلم، وهذا منافق أو كافر؟[١٠٤].

وذكر جملة أسباب ردّ فيها دعوى العلاج بالجن، نذكر منها: أنه صلى الله عليه وسلم، ترقى ورقى وأمر أصحابه بالرقية، فاجتمع بذلك فعله وأمره وإقراره، فلو كانت الاستعانة بالجن المسلم فضيلة، ما ادخرها الله عن رسوله -صلى الله عليه وسلم- ولا عن أصحابه، وهم خير الخلق وأفضلهم بعد أنبيائه، ومنهم من أصابه الصرع، ومنهم من أصابته العين، وفيهم من تناوشته الأمراض من كل جانب، فما نقلت لنا كتب السنّة عن راق فيهم استعان بالجن.

إنّ هذا الأمر فيه مشابهة لفعل السحرة، وقد يختلط الأمر على العوام فيساوون بين الراقي بالقرآن والساحر، فيروج بذلك سوق السحرة وهذا من المفاسد العظيمة على العقيدة[١٠٥].

ومن الجدير بالذكر أنّ كثيراً من الناس امتهن مهنة الراقي والمعالج، يتكسب منها، ويبتز أموال الناس السذّج، بكتابة الحجب والتمائم. يقول القاسمي: "والمحترفون بهذه الحرفة في غاية من الكثرة، وبعضهم أكثر رواجاً من بعض، يأتي إليهم النساء –وهم أكثر زبائنهم- ثمّ البسطاء من الرجال، ويشكون إليهم مرضاً عسر برؤه، أو وسواساً، أو أحلاماً مخيفة، أو سرقة دراهم، أو حليّ، أو دابّة، أو نكاية عدو أو ضرّه، ويطلبون منهم حجباً، فعند ذلك يقرأ الراقي على المرقي وينفث فيه، ويعدّ له تميمة يعلقها أو ورقة يحفظها، ولكن بعد أن يشترط عليه مقداراً من الدراهم، ومن البخورات ومن أدوات الحجاب ما شاء هواه وقلة دينه وتقواه، وأكله أموال الناس بالباطل الذي ما أنزل الله به من سلطان!" ويضيف: "وكم كانوا سبباً في هتك أعراض، وفراق أزواج، وكم ارتكبوا الفواحش في مخدَّرات يأتين إليهم، ويلقين إليهم القياد، تخلصاً مما ألمّ بهنّ، ويعتقدن الشفاء أو النجاح في الأمل عندهم"[١٠٦]!

وبهذا تظافرت الأدلة من الكتاب والسنّة وأقوال العلماء الثقات، على تحريم السحر، والتنجيم وكل ما يمت لهما بصلة من سؤال الكهان والعرّافين، وأن دعواهم معرفة الغيب باطلة، وأنهم أبعد الناس عن التقوى أو الكرامة، وأنّ الجن أنفسهم محجوبون عن السمع، لقوله تعالى: ((وما تنزلت به الشياطين، وما ينبغي لهم وما يستطعيون، إنهم عن السمع لمعزولون)). (الشعراء/٢١٠-٢١٢). ولاعتراف الجن أنفسهم: ((وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً)). (الجن/٨). وكل ما يأتيه أدعياء الغيب كذب وافتراء من ابتداعهم وتلفيقهم لا يمتّ إلى الحقيقة بصلة.

الخاتمة

بعد الانتهاء من هذه الدراسة، بقي أن أشير إلى أهم النتائج التي توصّلت إليها، وأجملها على النحو الآتي:

أولاً: إنّ الناس قد افتتنوا بأمور السحر والشعوذة والكهانة والتنجيم منذ أمد طويل، ويرجع ذلك إلى حبّهم التعرّف على ما سيحدث لهم في المستقبل من خير أو شر.

ثانياً: إنّ العلماء المسلمين متّفقون على حرمة التعامل بأمور السحر، والشعوذة، والكهانة، والتنجيم، إلاّ أنهم اختلفوا في حقيقة السحر.

ثالثاً: إنّ التعامل بأمور السحر، والشعوذة، والكهانة، والتنجيم، له آثار سلبية خطيرة في عقيدة الناس، وسلوكاتهم، وعلاقاتهم الاجتماعية، لذلك حرّمها الإسلام، وشنّ عليها حرباً لا هوادة فيها، من أجل تحرير العقل من الخرافات والخزعبلات والأوهام.

رابعاً: السحر له أنواع كثيرة، والساحر بعيد عن كل أسباب الفلاح والفوز، لمجانبته الإيمان والتقوى، وعاقبته وخيمة، وما يأخذه من مال يعدّ أكلاً لأموال الناس بالباطل.

خامساً: ندعو أولي الأمر في البلاد الإسلامية أن لا يتهاونوا مع السحرة والمنجمين والكهان والمشعوذين، وأن يوقعوا عليهم أشد العقوبات، لأنهم يضللون الناس في عقائدهم، ويبتزون

أموالهم بغير حق، بالإضافة إلى تشويههم الفكر الإسلامي الصحيح، وصورة المجتمع المعاصر.

الهوامش

١- الحصري، ساطع، دراسات عن مقدمة ابن خلدون، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ص١٣.

٢- ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، ط٤، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص٣٣٠.

٣- قطب، سيد، في ظلال القرآن، ط٧، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ج٦، ص٣٠٠.

٤- ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، جمع عبد الرحمن النجّدي وولده، الرياض، ١٩٧٨م، ج٣٥، ص١٧٥.

٥- رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ط٢، دار المعرفة، بيروت، ج٧، ص٤٢٢-٤٢٣.

٦- ابن خلدون، المقدمة، ص٣٣٠.

٧- ابن عابدين، محمد أمين، حاشية رد المحتار على الدر المختار، شرح تنوير الأبصار، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩م، ج٤، ص٢٤٢.

٨- الهيتمي، أبو العبّاس أحمد بن محمد بن علي بن حجر المكّي، الزواجر عن اقتراف الكبائر، دار الفكر، بيروت، ج٢، ص١٠٩.

٩- المرجع نفسه، ج٢، ص١٠٩-١١٠.

١٠-ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٣٥، ص١٧٣.

١١-المصدر نفسه.

١٢-الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ضبط يوسف البقاعي، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، بيروت، دار الفكر، ص٣٠٢-٣٠٢-٣٠٣. وانظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، ط٣، بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، باب الشين، فصل الذال، ج٧، ص١٣١.

١٣-الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق علي شيري، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، دار الفكر، فصل النون مع الراء، ج٧، ص٥٢٥.

١٤-القرافي، أبو العباس أحمد بن إدريس الصنهاجي، الفروق، عالم الكتب، بيروت، م٢/ ج٤، ص١٤٧-١٤٨.

١٥-المرجع نفسه، ج٤، ص١٤٧.

١٦-المرجع نفسه، ج٤، ص١٤٢.

١٧-المرجع نفسه، ج٤، ص١٤٢-١٤٣.

١٨-ابن عابدين، الحاشية، ج٤، ص٢٤٢-٢٤٣.

١٩ابن منظور، لسان العرب، باب السين، فصل الراء، ج٦، ص١٨٩.

٢٠-رواه البخاري، كتاب الطب، باب (إنّ من البيان سحراً)، انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت، ج١٠، ص٢٣٧.

٢١-رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ج١، ص٣١٩.

٢٢-ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، مصر، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده، ط٢، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ج٣، ص١٣٨.

٢٣-الجصاص، أبو بكر أحمد بن علي الرازي، أحكام القرآن، ضبط عبد السلام شاهين، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ج١، ص٥٠.

٢٤-الرازي، محمد بن عمر، تفسير الفخر الرازي، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ج٢، ص٢٢٣.

٢٥-الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج١، ص٢٥٢. وانظر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، ط٢، ١٤٠٩هـ، ج٣، ص١٣٤.

٢٦-قطب، سيد، في ظلال القرآن، ج٨، ص٧٠٩.

٢٧-ابن خلدون، المقدمة، ص٤٩٦.

٢٨-الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، ج١، ص٢٩.

٢٩-الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد الكيلاني، دار المعرفة، بيروت، ص٢٢٥-٢٢٦.

٣٠-أدهم، إبراهيم كمال، السحر والسحرة من منظار القرآن والسنّة، ط١، دار الندوة الإسلامية، بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص٢٧.

٣١-الرازي، التفسير الكبير، ج٢، ص٢٤٤.

٣٢-ابن خلدون، المقدمة، ص٥٠١.

٣٣-الأشقر، عمر سليمان، عالم السحر والشعوذة، ط١، مكتبة الفلاح ودار النفائس، الكويت، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ص١٠٧، نقلاً عن محمد جعفر، السحر، ص٢١٥.

٣٤-الرازي، التفسير الكبير، ج٢، ص٢٢٦.

٣٥-القرافي، الفروق، ج٤، ص١٤٦.

٣٦-الأشقر، عالم السحر والشعوذة، ص١٠٥.

٣٧-الرازي، التفسير الكبير، ج٢، ص٢٢٩.

٣٨-أدهم، السحر والسحرة، ص٤٠-٤١.

٣٩-الأشقر، عالم السحر والشعوذة، ص١٤٤.

٤٠-ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، ط١، دار افي معرفة، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج١، ص١٥٠-١٥١.

٤١-الرازي، مفاتيح الغيب، ج٢، ص٢٣٠.

٤٢-القرافي، الفروق، ج٤، ص١٣٧. وانظر: المرجع السابق، ج٢، ص٢٣١.

٤٣-الجصاص، أحكام القرآن، ج١، ص٥٧.

٤٤-ابن كثير، تفسير، ج١، ص١٥٢.

٤٥-ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ج١، ص٦٣٣.

٤٦-الحصري، ساطع، دراسات عن مقدمة ابن خلدون، ص٢٤.

٤٧-المرجع نفسه.

٤٨-ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٣٥، ص١٧٠.

٤٩-المورودي، أبو الأعلى، تفهيم القرآن، تعريب أحمد إدريس، ط١، دار القلم، الكويت، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ج١، ص٨٩.

٥٠-ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق محمد عبدالرحمن، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ج١، ص١٠٤.

٥١-ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١، ص٦٢٨.

٥٢- حسين، محمد الخضر، أسرار التنزيل، تفسير آيات قرآنية كريمة، جمع وتحقيق علي الرضا التونسي، المطبعة التعاونية، بيروت، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م، ص ١٦٢-١٦٣.

٥٣-ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١، ص٦٢٦.

٥٤-ابن جزي، محمد بن أحمد الكلبي الغرناطي، التسهيل لعلوم التنزيل، دار الفكر، ج١، ص٥٥.

٥٥-الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، ط٢، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م، ج١، ص١٢٠. وانظر: الزجاج، أبو اسحق إبراهيم بن السرّي، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق عبد الجليل عبده، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج١، ص١٨٣.

٥٦-ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١، ص٦٤٤.

٥٧-الشوكاني، فتح القدير، ج١، ص١٢١.

٥٨-الطبرسي، مجمع البيان، ج١، ص٢٦٢. وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج١، ص٦٤٨.

٥٩-ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٢، ص١٧٠-١٧١. والفتاوى الكبرى، بيروت، دار افي معرفة، ج١، ص٣٨٩.

٦٠-ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٢، ص١٧١.

٦١-التولات: جمع تولة كعنبة، ما تحمله المرأة ليحبها زوجها. التناجيس: ما يحمل لنحو ذلك أيضاً، أو للعين من الخرز والعظام التي تعلق على الأطفال، أو للحفظ من الجن والشياطين.

٦٢-رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ج٢، ص١٩٦.

٦٣-ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٣٥، ص١٩١.

٦٤-المرجع نفسه، ج٣٥، ص١٩٥.

٦٥-ابن ماجة، محمد بن يزيد، السنن، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار الفكر، ج٢، ص١٣٢٧.

٦٦-ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٣٥، ص١٩٥.

٦٧-المرجع نفسه، ج٣٥، ص١٩٧.

٦٨-المرجع نفسه، ج٣٥، ص١٩٦.

٦٩-القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، م١، ج٢، ص٤٣.

٧٠-الطبري، جامع البيان، ج١، ص٤٩٤.

٧١-المرجع نفسه، الأثر رقم (١٦٦٢).

٧٢-المرجع نفسه، رقم (١٦٦٦، ١٦٦٧).

٧٣-رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ج١، ص٣٩٨.

٧٤-الناصري، محمد المكي، التيسير في أحاديث التفسير، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ج١، ص٦٥.

٧٥-ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، ج١، ص٣٩٦.

٧٦-رضا، محمد رشيد، تفسير المنار، ج١، ص٣٩٨.

٧٧-ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٣٥، ص١٦٦.

٧٨-يروى هذا القول عن علي بن أبي طالب، وعزاه بعضهم للشافعي، ورواه بهذا اللفظ الصغاني وقال إنه موضوع. انظر: العجلوني، إسماعيل بن محمد، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عمّا اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ج٢، ص٤٧٢-٤٧٣، حديث رقم (٣٠١١). والشوكاني، محمد بن علي، الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، بيروت، دار الكتب العلمية، تحقيق عبد الرحمن اليماني، ص٥٠٧.

٧٩-ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٣٥، ص١٧٩.

٨٠-المرجع نفسه.

٨١-أبو داود، سليمان بن الأشعث، السنن، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الفكر، ج٣، ص٣١٨.

٨٢-ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٣٥، ص١٨٣-١٨٧.

٨٣-الشوكاني، فتح القدير، ج١، ص١٢٠. وانظر: النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، شرح صحيح مسلم، ج١٤، ص١٧٥.

٨٤-الرازي، التفسير الكبير، ج٢، ص٢٢٤-٢٢٥.

٨٥-الجصّاص، أحكام القرآن، ج١، ص٥٧-٥٨.

٨٦-الرازي، التفسير الكبير، ج٢، ص٢٢٦.

٨٧- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، م١، ج٢، ص٥١. وانظر: أبا حيان، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج١، ص٥٢٧، ٥٣٠. وابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبدالسلام عبد الشافي، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ج١، ص١٨٧. والشوكاني، فتح القدير، ج١، ص١٢٢-١٢٣.

٨٨-الشوكاني، فتح القدير، ج١، ص١١٩.

٨٩-أبو حيان، البحر المحيط، ج١، ص٥٢٥.

٩٠-ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٣٥، ص١٦٧-١٧٠.

٩١-المرجع نفسه، ج٣٥، ص١٧٣. والفتاوى الكبرى، ج١، ص٣٩٠.

٩٢-النيسابوري، مسلم بن حجّاج، الصحيح المشتهر بصحيح مسلم، المطبعة المصرية ومكتبتها، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، ج١٤، ص٢٢٣.

٩٣-المرجع نفسه، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، ج١٤، ص٢٢٧.

٩٤-أبو داود، السنن، ج٤، ص١٥. وانظر: الشيباني، أحمد بن حنبل، المسند، مؤسسة قرطبة، مصر، ج٢، ص٤٢٩.

٩٥-المراد من كتبها وتعلّمها لمن يدّعي بها علم الغيب، وأبو جاد: هو الذي يسمّى علم الحروف. انظر: ابن تيمية، ومحمد بن عبد الوهاب، مجموعة التوحيد، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، الرسالة العاشرة، باب ما جاء في الكهان ونحوهم، ص٢٧٥-٢٧٦.

٩٦-أبو داود، السنن، ج٤، ص١٥. وانظر: ابن ماجة، السنن، ج٢، ص١٢٢٨.

٩٧-النسائي، أحمد بن شعيب، السنن، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، ط٢، حلب، مكتبة المطبوعات الإسلامية، ١٩٨٦م، ج٧، ص١١٢.

٩٨-أبو داود، السنن، ج٤، ص١٦. وابن حنبل، المسند، ج٣، ص٤٧٧.

٩٨-البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، تحقيق مصطفى البغا، ط٣، بيروت، دار ابن كثير، ١٩٨٧م، ج٣، ص١٠١٧، ومسلم، الصحيح، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ج١، ص٩٢.

٩٩-الترمذي، محمد بن عيسى، السنن، تحقيق أحمد شاكر، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ج٤، ص٦٠.

وقال: الصحيح أنه موقوف.

١٠٠-ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر، ج٧، ص١٣٠.
١٠١-ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج٢٠، ص٥٢٥. ج٢١، ص٣٠٠، ٣٠٣، ٣٢٠، ٤٥٢.
١٠٢-المرجع نفسه، ج١١، ص٨٢؛ ج١، ص٣٣٦. ج١٩، ص١٣.
١٠٣-حسن، مشهور، فتح المنّان في كلام شيخ الإسلام عن الجان، ج٢، ص٤٩٨.
١٠٤-المرجع نفسه، الهامش، ج١، ص٢١٣-٢١٤.
١٠٥-القاسمي، محمد سعيد، قاموس الصناعات الشاميّة، تحقيق ظافر القاسمي، ص٢٣١. وانظر ما كتبه في الرمّال ص١٥٧.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق ٢٠٠١/٨/٢٩.